ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

حقوق الطبع محفوظة للمؤلف

الطبعة الثالثة

1430هـ. - 2009م.

المركز الإسلامي للدراسات

_____

_____

_____

ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!

السيد جعفر مرتضى العاملي

المركز الإسلامي للدراسات

بسم الله الرحمن الرحيم

بسم الله الرحمن الرحيم

مقدمة الناشر:

ظاهرة القارونية.. من أين؟! وإلى أين؟! هي في الأساس دراسة للمؤلف العلامة السيد جعفر مرتضى العاملي، وقد نشرت في مجلة المنطلق اللبنانية، ولذلك ترددنا في مركز جواد قبل أن نقرر نشرها ضمن دفتي كتاتب، غير أن إلحاح العديد من المعارف والأصدقاء على الحصول عليها جعلنا نبادر إلى طباعتها ونشرها، لتكون بين أيدي الناس بشكل كتاب منفصل يعودون إليه وقت الحاجة، كذلك فإن ما ساعد على رجحان كفة نشر الدراسة: هو أن موضوعها يتناول قضية على جانب كبير من الأهمية، إذ إن ظاهرة القارونية ليست وقفاً على قارون المذكور في القرآن وحده. وإنما تمتد عبر الزمان والمكان لتشمل كل من يسير على خطى قارون «بني إسرائيل» المذكور في القرآن، ولتطال بشكل أو بآخر كل من يتشبه بقارون، أو يرتدي زيه

ويقلد أسلوبه، سواء في اكتناز الذهب والفضة والأموال والعقارات والمتاع أو في تعامله الحقوقي مع الناس.

ويقيناً أن ظاهرة القارونية التي بدأت بقارون المذكور لم تنته به وكذلك لن تنته في هذا الزمن ولا في الزمن الذي بعد، ففي كل جيل وكل مجتمع أكثر من قارون. وسيظل قارون أو بالأحرى الثياب والمظاهر القارونية تجد من يطلبها ويسعى إلى الحصول عليها طالما أننا نجد في المجتمعات الإنسانية من يبتعد عن طريق الله ويتجنب الإهتداء بهدي رسل الله وأنبيائه، ويعمل على مخالفة شرائع الله وكتبه.

«ظاهرة القارونية من أين؟! وإلى أين؟!» دراسة وإن كانت مختصرة إلا أن من المفيد جداً الإطلاع عليها خاصة وأن المؤلف قد توخى فيها المعالجة القرآنية، ولا نغالي إذا قلنا: إنها الدراسة الأولى التي تلتفت إلى هذه الظاهرة وتعالجها وفقاً للمنظور القرآني.

الناشر

الفصل الاول:

ظاهرة القارونية: من أين؟! وإلى أين؟!

بسم الله الرحمن الرحيم

والحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على خير خلقه وأشرف بريّته محمد وآله الطيبين الطاهرين.. واللعنة على أعدائهم أجمعين إلى قيام يوم الدين..

وبعد..

قال تعالى: **(إِنَّ قَارُونَ كَانَ مِنْ قَوْمِ مُوسَى فَبَغَى عَلَيْهِمْ وَآتَيْنَاهُ مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ إِذْ قَالَ لَهُ قَوْمُهُ لاَ تَفْرَحْ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْفَرِحِينَ * وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلاَ تَنْسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا وَأَحْسِنْ كَمَا أَحْسَنَ اللهُ إِلَيْكَ وَلاَ تَبْغِ الْفَسَادَ فِي الأَرْضِ إِنَّ اللهَ لاَ يُحِبُّ الْمُفْسِدِينَ * قَالَ إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي أَوَلَمْ يَعْلَمْ أَنَّ اللهَ قَدْ أَهْلَكَ مِنْ قَبْلِهِ مِنَ الْقُرُونِ مَنْ هُوَ أَشَدُّ مِنْهُ قُوَّةً وَأَكْثَرُ جَمْعاً وَلاَ يُسْأَلُ عَنْ ذُنُوبِهِمُ الْمُجْرِمُونَ * فَخَرَجَ عَلَى قَوْمِهِ فِي**

زِينَتِهِ قَالَ الَّذِينَ يُرِيدُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا يَا لَيْتَ لَنَا مِثْلَ مَا أُوتِيَ قَارُونُ إِنَّهُ لَذُو حَظٍّ عَظِيمٍ * وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللهِ خَيْرٌ لِمَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً وَلاَ يُلَقَّاهَا إِلاَ الصَّابِرُونَ * فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ) (1).

صدق الله العظيم

---

(1) الآيات الآية: 76 ـ 82 من سورة القصص.

بداية:

إن من الأمور الواضحة، التي لا تكاد تخفى على أحد: إن الإنسان يمتاز عن كثير من الكائنات الحية بأمر جوهري وبالغ الأهمية، لما يتركه من آثار بارزة وعميقة على الحياة بمختلف شؤونها وحالاتها، وعلى كثير من الروابط والعلاقات التي تربط فيها بين هذا الإنسان، وبين كل ما ومن يحيط به في العالم العتيد والرحيب.

وهذا الأمر هو: أن الآدميين حين يولدون، فإن أقرب صفة يمكن أن تشير إلى واقعهم هي: أنهم مجرد "بشر". لا أكثر، فكلّ منهم يولد فاقداً لجل، إن لم يكن لكل القدرات، والطاقات، والمميزات، والخصائص التي يفترض أن تكون هي العناصر التي يتشكّل منها بمجموعها كيانه، وشخصيته، ووجوده؛ ولتتخذ من ثم دور الفاعل المؤثر في كل ما يحيط به، ويتصل

بحياتها، ويرتبط بها، بنحو من أنحاء الارتباط والاتصال.

لابد من الاختيار:

والذي يميّز هذا الكائن الحي عن غيره من مشاركاته في خصوصية الحياة هو: أنه هو الذي يختار أكثر ملامح شخصيته، التي تجسد وجوده، وينتقي - بنفسه - وبمحض إرادته، وملء اختياره كثيراً من خصائصه الإنسانية، في أي وقت شاء، وفي المستوى، وبالشكل، والطريقة التي يرى أنها تقاربه وتناسبه.

وبعبارة أقرب إلى الوضوح نقول: إن هذا الآدمي بعد أن يولد يبدأ مسيرة اكتساب خصائصه وميزاته ويستوعب بعض الطاقات والقدرات، وتبدأ ملامح شخصيته بالظهور بصورة تدريجية ومطردة، متأثراً أولاً بالتربية البيتية، والمدرسية، ثم على سبيل التفاعل مع بيئته ومحيطه، وسائر ما يمكن أن يعنيه ويلامس حياته ووجوده وشخصيته بصورة أو باخرى.

حتى إذا قطع شوطاً في هذا السبيل، وأصبح يمتلك

درجة من الوعي، والشعور، والتمييز، فإنه يبدأ بالمشاركة في الحصول على ذلك بدرجات مختلفة، إلى أن ينتهي به الأمر إلى الاستقلال التام في متابعته لمسيرته التكاملية هذه. وقد نجده يباشر عملاً تصحيحياً يشبه التقليم والتطعيم في جهات كثيرة ومتنوعة في كيانه وشخصيته وفي حياته الفردية والاجتماعية على حد سواء. فإذا رأى أنه يعاني من خصيصة الجبن، أو اللؤم، أو البخل، أو الاستكبار مثلاً؛ فإنه من خلال جهد ذي طابع معين يقتلع هذه الصفات أو الحالات من كيانه لتحل محلها صفات أفضل منها.

فهو يفعل ذلك بمحض إرادته، واختياره، وبمبادرة ومباشرة منه وبوسائل وقدرات تهيأت له، وأصبحت بفضل الله في متناول يده، ليستفيد منها في هذا المجال، ثم في عملية بناء الحياة، بصورة سليمة، بدءاً من التغلب على مصاعبها، وتذليلها، وانتهاء بتسخير نواميسها، والهيمنة عليها بكل ما فيها من إمكانات، وطاقات، وإن كان كل واحد من بني الإنسان يختار لنفسه موقعاً لنشاطه وعمله يختلف جزئياً عن موقع

نشاط كثيرين آخرين، تبعاً لاختلاف التوجهات والطموحات، والقدرات والإمكانات المتوفرة لدى كلٍ منهم.

أما دور العقل في هذا الاختيار الزاخر بالحركة، والمفعم بالمفاجآت، فهو دور المدبر، والمقدر، الذي يقدم مشورته ونصحه بأمانة ودقة في كل كبيرة وصغيرة.

خصائص الشخصية وميزاتها:

والذي نعنيه من الخصائص والميزات الشخصية الإنسانية هو كل الطاقات، والحالات الخَلْقِية والخُلُقية والغريزية، والفكرية والنفسية، وغيرها مما هو مؤثر في إيجاد حركة الانتقال سلباً أو إيجاباً، إلى وضع جديد، وحالة جديدة، بلا فرق بين أن يكون ذلك باتجاه تحقيق الذات، أو باتجاه التخلي عنها، أو عن بعض خصائصها.

فيشمل ذلك ما لدى الإنسان من سمع وبصر، وقوة بدنية، ويد ورجل، وسلامة تركيب، ويشمل حتى

غرائزه الذاتية، ومواصفاته الخلقية والنفسية، مثل حب الذات، وغريزة الجنس، والغضب، والكرم، وحب الجاه، والمروءة، والعقل، وحب التملك، وحب الحياة وحتى الجوع والعطش، والإحساس بالألم، وغير ذلك مما هو ضرورة حياتية لهذا الإنسان.

كما أنه يشمل الحالات المضادة والسلبية مثل: حالة الجبن، واللؤم والاستكبار، والحسد، وما إلى ذلك.

مع التذكير بأن الله يريد من الإنسان أن يجعل هدفه الكبير هو الوصول إليه سبحانه، وكون الاتجاه في خط المسير إليه، وبذلك يستكمل الإنسان صفاته الإنسانية المثلى والفضلى، لكي تكون صورته أصفى وأروع وأبهج ما تكون، ويحقق بذلك ذاته، ويجسد من خلال الرعاية والتربية الإلهية إنسانيته التي أرادها الله سبحانه له، حيث قال: **(يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ)** (1).

---

(1) الآية 6 من سورة الإنشاقق.

التوازن ضرورة حياتية:

إلا أن من الواضح: أنه من أجل بناء الحياة بصورة سليمة وقويمة لابد من الاستفادة من تلك القوى والملكات، والخصائص والحالات بصورة متوازنة ومنضبطة، فيعطى لكل منها دوره، ويمارس تأثيره في الموقع وبالمستوى المناسب والمطلوب في نطاق الأطروحة الحياتية العامة بكل تفاصيلها. وبدون ذلك فإن من الطبيعي أن يتطرق الخلل إلى شخصية الإنسان، ثم إلى محيطه وإلى أي شأن من شؤون حياته، على مستوى الفرد وعلى مستوى الجماعة أيضاً.

وبتعبير أوضح وأصرح: إن الحفاظ على حالة التوازن في شخصية الإنسان أمر ضروري وحياتي، ولابد منه ولا غنى عنه، إذا أريد لهذا الإنسان أن يصل إلى الهدف الكبير الذي يريده الله له.

والمقصود: من التوازن هذا هو إعطاء كل طاقة وخصيصة، وحالة دورها وحقها في ممارسة نشاطها

الطبيعي في مستوى الحاجة، وفي نطاق الأطروحة الحياتية الشاملة؛ فلا تستأثر بشيء مما يرصد لغيرها، سواء من داخل الذات أو من خارجها مما يفترض فيه أن يسهم في بناء الحياة، وفي تكامل حلقاتها وتطويرها نحو الأكمل والأفضل والأمثل.

ضمانة حالة التوازن والاستمرار فيها:

ولن يمكن ضمان وجود حالة التوازن واستمرارها إلا بالحصول على درجة كافية من المعرفة والوعي لمواقع الحركة، ثم التحكم في درجة الاندفاع فيها من خلال هيمنة العقل والفطرة، وإعطائهما دورهما الفاعل والمؤثر، والأصيل، والقيادي، بكل ما تحمله هذه الكلمات من معنى.

مع تسجيل تحفظ قوي على الاستقلال المطلق لما يسمى بالعقل، بل لابد من حصر حركته في نطاق التشريعات الإلهية الواقعية، لكي لا يشتبه بالامر، ونقع في المحذور الكبير، حينما لا نميّز كثيراً بين احكام العقل وإلزاماته، وبين إلزامات الاهواء بعد التظاهر

بعقلنتها وترويضها.

وعلينا أن لا ننسى هنا الدور الرئيس والأقوى للتحصين الوجداني والضميري، الذي يتحكَّم أكثر من أي شيء آخر في المسار العملي على مستوى الإقدام والإحجام، على اساس القناعات الفكرية، ومن منطلق الإيمان العميق والصافي، كما أن له دوره الرائد والحاسم والحازم في مواجهة حالات الإغراء والإثارة مهما كانت قوية وعاتية.

ولتكن هذه الحالة الضميرية والوجدانية هي التي تتولى عملياً تسديد فواتير الحسابات الدقيقة التي يقدمها العقل المهيمن، وفقاً لأحكام الشرع، ووفق الشروط التي تفرضها هذه الحالة بالذات حيث يتم توظيف الأرباح، وتعويض الخسائر، متى ما كان ثمة حاجة إلى التوظيف أو التعويض.

السقوط المفاجئ إذن. لماذا؟!:

ونجد نماذج كثيرة تجسد لنا السقوط المفاجئ للإنسان، حينما يتعرض لأول امتحان صعب،

ومواجهة صدمة قوية، أو حين يواجه بعض مفاتن الحياة، ومباهجها. رغم أننا كنا نعتقد: أنها قد بلغت مرتبة سامية في مسيرتها التكاملية في نطاق تاكيد الذات، وتحقيق الوجود الإنساني وتجسيد ملامح الشخصية الإنسانية على صفحة الواقع الراهن.

فينتصب أمام أعيننا سؤال وجيه عن سر هذا السقوط المريع، الذي تتلاشى معه الطموحات الكبيرة، وتتبخر طاقات، وتذوب قدرات، وتتهاوى مداميك البناء الشامخ، المبني بعرق الجهد المضني، والمضمخ بدم التضحيات الجسام على مدى سنين كثيرة.

وكيف يمكن أن تمتد يد بَنَتْ وشيَّدت، لتهدم نفس ما بنته، وتدمر ما شيدته، وتعبث بل وتعصف بكل نبضات الحياة والحركة فيها، بعنف وشراسة، وقسوة وحقد؟!

فبدلاً من أن تكون تلك الطاقات والقدرات وسيلة لبناء الحياة وملئها بالخيرات والمباهج، فإنها تصبح معولاً شرساً لا يرحم شيئاً، ولا يُبقي على شيء في هذه الحياة بالذات.

ويجيبنا الواقع الموضوعي على هذا السؤال بأن ما كنا نراه لم يكن هو الواقع، أو على الأقل لم يكن هو كل الواقع، فإن تلك الخصائص، والقدرات، والحالات التي كانت تظهر لنا من نفسها قوة ورسوخاً، ورواء وشموخاً، إنما كانت تستدرجنا إلى الخديعة، حيث إنها كانت تستبطن ضعفاً وخموداً وفشلاً، لم يكن ليظهر لنا لولا مواجهة الامتحان الصعب، ومسؤولية حمل الأعباء، وتحصين كيانه وصيانته في مواجهة المغريات والمفاتن.

ويجيبنا في حين آخر بان فقدان الحالة الضميرية والوجدانية، القادرة على مواجهة حالات الإغراء والإثارة، تتحكم في حركة الكيان كله إقداماً أو إحجاماً، وهو المسؤول عن هذا السقوط المفاجئ والمريع.

ولربما تتضمن الإجابة إدانة للعقل الذي لم يستطع أن يمسك ـ عملاً ـ بزمام الأمور، ولم يقم بدوره في الموازنة بين العوامل والطاقات، والخصائص المؤثرة في صنع الواقع، أو لم يتمكن من الهيمنة عليها وتسييرها وفق أحكام الشريعة والدين، ووفق مقتضيات

نواميس الحياة.

وقد تكون المصالح والأهواء استطاعت أن تستعير رداء العقل أو الشرع. وتظهر بمظهره؛ فكان المحذور الكبير، وكان أن طغت الأهواء، وهاجت الغرائز، وتحركت البواعث الإنحرافية الكامنة، وطغى وتمرد منها ما وجد القدرة على التمرد والطغيان، ووجد وسائله وأدواته.

حب المال نتيجة طبيعية لحب التملك:

وإذا اتضح ما تقدم، فإننا سوف ندرك أن حب التملّك الذي يستتبع حب المال بدرجته المعقولة والمقبولة هو أحد الأدوات والوسائل التي أراد الله لها أن تساعد على إنشاء الحياة، وصياغتها بالطريقة التي يريدها الله سبحانه للإنسان في نطاق السعي نحو ذلك الهدف الأسمى وهو الوصول إليه تعالى في عملية كدح طويلة لبناء الذات، وتحقيق إنسانية الإنسان، وبلورة وجوده الحقيقي في حصوله على خصائصه الإنسانية الفضلى والمثلى من خلال الرعاية والتربية الإلهية،

باعتبار أن أي نقص في ذلك، إنما يعني نقصاً في درجة إنسانيته وفي تكوينه، وفي شخصيته ووجوده.

وعلى هذا، فليس بدعاً أن يحبّ الإنسان المال، وأن يرغب في جمعه، ويسعى للحصول عليه وتكثيره. شريطة أن لا يتمادى في هذا الحب إلى درجة الفناء فيه، واعتباره هو المقياس الحقيقي للكرامة والمهانة، وللوجود واللاوجود وهذا ما حذر الله سبحانه منه أولئك الذين يقعون في هذا الخطأ الكبير، ولامهم على ذلك، فقال:

(فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ * وَلاَ تَحَاضُّونَ عَلَى طَعَامِ الْمِسْكِينِ * وَتَأْكُلُونَ التُّرَاثَ أَكْلاً لَمّاً * وَتُحِبُّونَ الْمَالَ حُبّاً جَمّاً)(1).

إذن.. فمن الطبيعي: أن يبذل الإنسان المحاولات، ويرسم الخطط وينشئ العلاقات، ويبذل الجهد في سبيل

---

(1) الآيات 15 - 20 من سورة الفجر.

المال وجمعه، وذلك في نطاق الأطروحة الإلهية، التي تعتبره أحد المواقع الجهادية المقدسة، كما قرره الإسلام، ولهذا فقد كان الكادُّ على عياله كالمجاهد في سبيل الله. ولاجل هذا كانت يد العامل يداً يحبها الله ورسوله، كما قال النبي(ص) حينما قبَّل يد سعد بن معاذ رحمه الله، لما رأى فيها آثار العمل والجهد.

الهدف الكبير:

ويكون هذا الحب المعقول والمقبول هو أحد عوامل التأثير في إيجاد الفاعلية والحركة لدى هذا الإنسان، من خلال ما تثيره فيه من طموح وتوثب يدفعه لإعمار هذا الكون والهيمنة والتسلط عليه وعلى مقدراته، من خلال تفعيل نواميسه الطبيعية، وإثارة كوامنه، وتوظيفها في مجالات البناء الإيجابي، الذي يسهم في إسعاد الناس، وفي تكامله، ونموه المطرد، حتى في جوانبه وحالاته النفسية، والروحية، والفكرية، والعقيدية وغيرها وفق الأهداف الإلهية السامية.

ويوضح ذلك في الآيات التالية:

(هُوَ أَنْشَأَكُمْ مِنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا)[1] .

(أَلَمْ تَرَوْا أَنَّ اللهَ سَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ وَأَسْبَغَ عَلَيْكُمْ نِعَمَهُ ظَاهِرَةً وَبَاطِنَةً)[2] .

(وَسَخَّرَ لَكُمْ مَا فِي السَّمَوَاتِ وَمَا فِي الأَرْضِ جَمِيعاً مِنْهُ)[3] .

(وَسَخَّرَ لَكُمُ الْفُلْكَ لِتَجْرِيَ فِي الْبَحْرِ بِأَمْرِهِ وَسَخَّرَ لَكُمُ الأَنْهَارَ * وَسَخَّرَ لَكُمُ الشَّمْسَ وَالْقَمَرَ دَائِبَيْنِ وَسَخَّرَ لَكُمُ اللَّيْلَ وَالنَّهَارَ * وَآتَاكُمْ مِنْ كُلِّ مَا سَأَلْتُمُوهُ وَإِنْ تَعُدُّوا نِعْمَةَ اللهِ لاَ تُحْصُوهَا)[4] .

(وَهُوَ الَّذِي سَخَّرَ الْبَحْرَ لِتَأْكُلُوا مِنْهُ لَحْماً طَرِيّاً وَتَسْتَخْرِجُوا مِنْهُ حِلْيَةً تَلْبَسُونَهَا)[5] والآيات التي بعدها.

---

(1) الآية 61 من سورة هود.

(2) الآية 20 من سورة لقمان.

(3) الآية 13 من سورة الجاثية.

(4) الآيات 32 - 34 من سورة إبراهيم.

(5) الآيات 14 - 18 من سورة النحل.

وقد قدم الله سبحانه نموذجاً لهذا التسخير، وأظهر عملياً ماذا يراد منه، وذلك حينما سخر الريح، والطير والجبال، والجن لداود وسليمان.

قال تعالى: **(وَسَخَّرْنَا مَعَ دَاوُدَ الْجِبَالَ يُسَبِّحْنَ وَالطَّيْرَ وَكُنَّا فَاعِلِينَ)**(1).

وقال: **(وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ عَاصِفَةً تَجْرِي بِأَمْرِهِ إِلَى الأَرْضِ الَّتِي بَارَكْنَا فِيهَا وَكُنَّا بِكُلِّ شَيْءٍ عَالِمِينَ * وَمِنَ الشَّيَاطِينِ مَنْ يَغُوصُونَ لَهُ وَيَعْمَلُونَ عَمَلاً دُونَ ذَلِكَ)**(2).

ويقول سبحانه عن سليمان: **(فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ * وَالشَّيَاطِينَ كُلَّ بَنَّاءٍ وَغَوَّاصٍ)**(3).

وقال: **(وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ**

---

(1) الآية 79 من سورة الأنبياء.

(2) الآيتان 81 و 82 سورة الأنبياء.

(3) الآيتان 36 و 37 من سورة ص.

وَالطَّيْرِ) [1] ، ثم تذكر الآيات قضية الإتيان بعرش بلقيس، في أقل من طرفة عين.

حجم الكون:

ونريد أن نستطرد هنا إلى التذكير بأن سعة المساوات والأرض التي سخر الله جميع ما فيها لبني الإنسان هي فوق حدود التصور، وأكثر بكثير مما تشير إليه الاكتشافات التي تعتمد وسائل الرصد والاكتشاف المتطورة جداً في هذا العصر.

ونوضح ذلك على النحو التالي:

إن لغة العرب، قد وضعت في بداياتها لمعانٍ حسيّة، أو قريبة من الحسّ. فلم تكن قادرة على تحمل المعاني الدقيقة والعميقة إلا بالاستعانة، بأساليب بيانية متنوعة باستطاعتها توجيه الفكر والخيال باتجاه الأعماق والآفاق، ليقتنص المعنى، أو يتلمسه بصورة أو بآخرى.

---

(1) الآية 17 من سورة النمل.

فكانت الكنايات والمجازات، وكان التطعيم للمعاني الحسية بمعانٍ استيحائية، تعتمد على حالات الألفاظ، وطبيعة التراكيب المختلفة وخصوصياتها، حسبما تشير إليه ـ جزئياً ـ علوم البلاغة.

ولكن كل ذلك لم يف أيضاً بالمطلوب، فكان لابُدَّ من ضم المعاني بعضها إلى بعض في تراكيب متعددة تشير كل منها إلى جزءٍ أو إلى خصوصية في المعنى المقصود بيانه.

ومن الأمثلة الواضحة على ذلك، ما روي، من أن الإمام علي (عليه السلام) قد استنبط أقل الحمل من الجمع بين آيتين قرآنيتين. إحداهما تقول: وحمله وفصاله ثلاثون شهراً **(1)**، والأخرى تقول: وفصاله في عامين **(2)** فيكون؟! أقل الحمل ستة أشهر.

أما بالنسبة لحجم السماوات التي سخر الله ما فيها لهذا الإنسان. فقد استخدم لبيان حجمها وسعتها تراكيب

---

(1) الآية 15 من سورة الأحقاف.

(2) الآية 14 من سورة لقمان.

وكنايات متنوعة. فبين في بعض الآيات: أن السماوات سبع. ثم بين أن هناك سماء دنيا، أي قريبة وواطئة، يقابلها سموات عالية وبعيدة.

وتحدث مشيراً إلى حجم الدنيا والواطئة والقريبة باسلوب آخر، حينما أشار إلى انها هي التي تستوعب الكواكب، وتضم النجوم التي يصل نورها إلينا، حتى لو بقي يسير ملايين السنين الضوئية، فكل ما يصل نوره إلينا ـ مهما بعد ـ فهو من السماء الدنيا. قال تعالى:

(إِنَّا زَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بزِينَةٍ الْكَوَاكِبِ)(1).

وقال: **(فَقَضَاهُنَّ سَبْعَ سَمَوَاتٍ فِي يَوْمَيْنِ وَأَوْحَى فِي كُلِّ سَمَاءٍ أَمْرَهَا وَزَيَّنَّا السَّمَاء الدُّنْيَا بِمَصَابِيحَ وَحِفْظاً ذَلِكَ تَقْدِيرُ الْعَزِيزِ الْعَلِيمِ)**(2).

وقال سبحانه: **(وَلَقَدْ جَعَلْنَا فِي السَّمَاءِ بُرُوجاً**

---

(1) الآية 6 من سورة الصافات.

(2) الآية 12 من سورة فصلت، وراجع الآية 5 من سورة الملك.

وَزَيَّنَّاهَا لِلنَّاظِرِينَ)[1] .

وقال تعالى: **(أَفَلَمْ يَنْظُرُوا إِلَى السَّمَاءِ فَوْقَهُمْ كَيْفَ بَنَيْنَاهَا وَزَيَّنَّاهَا)**[2] .

فالسماء الدنيا إذن أوسع من هذه المنظومة الشمسية التي نعرفها، وربما تصل امتداداتها إلى ملايين الملايين من السنين الضوئية، إذا كان ثمة كواكب ونجوم يمكن أن يصل ضوئها إلينا، ونصير قادرين على رؤيتها. وأصبحت تزين هذه السماء، وتعطيها المزيد من الرُّواء والبهجة والبهاء.

فإذا كان هذا حال السماء الدنيا والقريبة، فما حال سائر السماوات: الثانية ثم الثالثة، وهكذا إلى السابعة؟!

كما أن الأمر لا يقف عند هذا الحد، بل يتعداه إلى أن السماء في اتساع مستمر، كما قال تعالى: **(وَالسَّمَاءَ بَنَيْنَاهَا بِأَيْدٍ وَإِنَّا لَمُوسِعُونَ)**[3] .

---

(1) الآية 16من سورة الحجر.

(2) الآية 6 من سورة ق.

(3) الآية 47 من سورة الذاريات.

ثم إنه تعالى قد قرر في آية أخرى: أن هذا الإنسان قادر على اختراق جميع السماوات، والخروج منها جميعاً إلى عالم جديد، لم يبيّن ما هو وما هي طبيعته، وآفاقه، وامتداداته. غير أنه أشار إلى أن هذا الإختراق سيواجه بصعوبات وموانع كبيرة وخطيرة، لن يمكن التغلب عليها إلا بالإعداد، والحصول على القوة، وامتلاك قدرات فائقة وكبيرة.

ثم بينّ لنا طبيعة هذه الحواجز والعوائق ونوعها، ليفهمنا بأسلوب بيان الواقع بتفاصيله: أن الكلام ليس مسوقاً على سبيل الفرض والادّعاء بهدف التعجيز. بل هو الحقيقة التي لابد أن تقع في دائرة طموحات هذا الإنسان، وفي متناول أطماعه حين يريد الله أن يفتح عينيه على هذا الكون الرحيب، ويثير شهيته للتسلط والهيمنة عليه.

وقد أشار تعالى إلى ذلك كله في الآية الكريمة التي تقول:

(يَا مَعْشَرَ الْجِنِّ وَالإِنْسِ إِنِ اسْتَطَعْتُمْ أَنْ تَنْفُذُوا مِنْ أَقْطَارِ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ فَانْفُذُوا لاَ تَنْفُذُونَ إِلاَ

بسُلْطَانٍ * فَبِأَيِّ آلاَءِ رَبِّكُمَا تُكَذِّبَانِ * يُرْسَلُ عَلَيْكُمَا شُوَاظٌ مِنْ نَارٍ وَنُحَاسٌ فَلاَ تَنْتَصِرَانِ)(1) .

كما أنه قد قدم نموذجاً عملياً لا مكان هذا الاختراق لآفاق السموات، وحدوثه بالفعل، وذلك في قضية المعراج برسول الله صلى الله عليه وآله.

ومعنى ذلك هو: أن البشرية بالنسبة لاكتشاف أسرار الكون ومعرفة آفاقه الرحبة وامتداداته الهائلة لا تزال في عصرها الحجري السحيق. فكيف بالنسبة لتسخير ما في السموات والأرض، والهيمنة عليها؟!.

---

(1) الآيات 33 - 35 من سورة الرحمن.

الفصل الثاني

القارونية في بداياتها..

بداية:

وإذا كان المال هو أحد الأدوات التي تساعد على التسلط، وفرض الهيمنة، على هذا الكون الرحيب، وكان ذلك هو إحدى مراحل بناء الشخصية الإنسانية ومن أسباب تكامله، وهو فقط وسيلة ووسيلة فقط، فإن ما يعتبر أمراً سلبياً وخطيراً جداً هو الفهم الخاطئ لدور المال هذا.

لماذا خطير جداً:

وقلنا: إنه أمر خطير جداً؛ لأننا نؤمن: أن قضايا الحياة، وإن بدت لأول وهلة، متباينة أو منفصلة، إلا أن ذلك ليس هو كل الحقيقة؛ لأن التباين والاختلاف إنما نشأ من تخصص الأشياء بخصوصياتها، أو ما يسمى بحدود الوجود، التي بها يتخصص، ويرتسم، ويتبلور ضمنها، وفي نطاقها.

وفيما عدا ذلك فإن هذا التأثير والتأثر المتبادل يدلاّن على وجود درجة من التلاقي والاتصال فيما بين الأشياء، الأمر الذي يفرض نوعاً من التعاطي والتعامل وفق حسابات تأخذ باعتبارها سائر المفردات التي يتشكل منها الواقع، أو يلامسها بطريقة أو بأخرى، وبنحو أو بآخر.

فلا غرو بعد هذا أن يكون للوجود الظاهر، كما لنقيضه دور في رسم حدود القضايا في نطاق التصور، حين يراد التعاطي معه وفق ما هو موجود ومفقود في الواقع ونفس الأمر. على أساس: أن ذلك له تأثير سلباً، أو إيجاباً في نوع، وفي مستوى، وطريقة وأنحاء ذلك التعامل.

إذن، فأي فهم خاطئ، أو تصور مشوه لدور المال، وهدفه، وموقعه، ودرجة تأثيره في الحياة، ونوع ذلك التأثير، لسوف يحدث تشوهاً في فهم كثير من الظواهر الحياتية الأخرى، بصورة مباشرة أو غير مباشرة.

ولسوف تظهر آثار التشوه في المعالم الحقيقية والأصيلة لتصورات كثيرة في أكثر من مجال، وفي

مختلف الاتجاهات.

أين هي القيمة الحقيقية:

ولعل الفهم الخاطئ لدور المال في الحياة يبدأ من نقطة إعطاء المال قيمة لا يستحقها، وذلك عندما يرى. أن للمال قيمة ذاتية وواقعية. فالقيمة له بما هو مال، لا بما هو أداة من أدوات بناء صرح الحياة الشامخ، في إنطلاقتها المباركة نحو الله تعالى، وفقاً لمفهوم: **(يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ)**(1).

وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الفهم الخاطئ، الذي يقع فيه أكثر الناس، فقال: **(فَأَمَّا الإِنْسَانُ إِذَا مَا ابْتَلاَهُ رَبُّهُ فَأَكْرَمَهُ وَنَعَّمَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَكْرَمَنِ * وَأَمَّا إِذَا مَا ابْتَلاَهُ فَقَدَرَ عَلَيْهِ رِزْقَهُ فَيَقُولُ رَبِّي أَهَانَنِ * كَلاَ بَل لاَ تُكْرِمُونَ الْيَتِيمَ..)**(2).

---

(1) الآية 6 من سورة الإنشقاق.

(2) الآيتان 15 و 16 من سورة الفجر.

سلبيات خطيرة:

ولهذا الفهم الخاطئ عدة نتائج وآثار سلبية:

إحداهما: إن هذا المال سوف يصبح هدفاً لهذا الإنسان، ومن ثم فهو لن يقوم بدوره الذي رُصِدَ له في بناء الحياة، وتذليل صعابها. ولن يستطيع أن يتحول إلى سلعة، أو خدمة تسهم في إسعاد الإنسان، وراحته، وإزاحة العقبات التي تعترض طريقه.

وسوف يفشل هذا المال في القيام بواجباته في ما يرتبط بتكامل الإنسان، ونموه الطبيعي على صراط تحقيق إنسانيته، وبلورة شخصيته، وتكامل وجوده في طريق الله سبحانه، والكدح إليه جل وعلا، على النحو الأكمل، والأفضل، والأمثل.

الثانية: إنه إذا كانت القيمة لنفس المال؛ فذلك يعني: أن كثرته تزيد من قيمته، فلابد إذن، من أن يصبح جمع المال وتكثيره، هو كل هم الإنسان، وغاية جهده، ومنتهى أمانيه وأعزّها.

الثالثة: إن هذا التصور، سوف يعطي صاحب

المال انطباعاً خاطئاً عن دور المال في الحياة. ومدى فاعليته، وتأثيره فيها، ونوع هذا التأثير. لأنه سوف يتخيل أن المال هو الحياة بكل مباهجها وملذاتها. ولا يمكن الحصول على اللذة والسعادة إلا به، وفيه.

إذن، فليس ثمة حياة ولا لذة في القرب من الله سبحانه، وليس ثمة لذة للعلم، ولا لفعل الخيرات، ولا في السعي في قضاء حاجات الناس، وتخفيف آلامهم، ولا في أي شيء آخر حتى السلطة والجاه، إلا إذا كان في خدمة المال، ومن أجله وفي سبيله. وبالمال تكون الحماية والضمانة أمام كل عوادي الزمن، وهو حلاّل المشاكل، مهما كانت، ومن أين أتت، وفي أي مجال كانت وجهته.

كما أن السلام، والأمن واللذة، والراحة، والجمال، والقوة، والسلطة، والموقع الاجتماعي وغيره، إنما هو بالمال، وفي ظل المال. بل إن الحياة نفسها، وحتى الخلود فيها، بل والجنة والنار، والحساب، والثواب، والعقاب، وغير ذلك إنما هو بالمال، ومع المال، ومن أجل المال.

وقد أشار الله سبحانه إلى هذا الفهم الخاطئ في أكثر من آية؛ فهو تعالى يقول: **(يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)**(1).

ويقول سبحانه مشيراً إلى اعتقادهم بأن أموالهم تحل مشاكلهم، وتغني عنهم: **(تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ * مَا أَغْنَى عَنْهُ مَالُهُ وَمَا كَسَبَ)**(2).

وقال تعالى حكاية لقول الكافر: **(مَا أَغْنَى عَنِّي مَالِيَهْ * هَلَكَ عَنِّي سُلْطَانِيَهْ)**(3).

وقال تعالى: **(إِنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَنْ تُغْنِيَ عَنْهُمْ أَمْوَالُهُمْ وَلاَ أَوْلاَدُهُمْ مِنَ اللهِ شَيْئاً وَأُولَئِكَ هُمْ وَقُودُ النَّارِ)**(4).

وقال سبحانه: **(وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ**

---

(1) الآية 3 من سورة الهمزة.

(2) الآيتان 1 و 2 من سورة المسد.

(3) الآيتان 28 و 29 من سورة الحاقة.

(4) الآية 10 من سورة آل عمران.

مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً) (1).

والآية الأخيرة تشير إلى اعتقاده بقاء وخلود نفس المال، والآيات السابقة عيلها تشير إلى الاعتقاد بأن المال يغني عن الإنسان ويحل له مشاكله حتى مع الله سبحانه.

وآية سورة الهمزة تشير إلى الاعتقاد بأن المال سبب لخلود الإنسان وبقائه.

التبدل في النظرة الكونية:

وهذا الذي قدمناه يشير إلى أن الخطأ في الرؤية في واحدة من قضايا الحياة قد انعكس على الرؤية في قضايا كثيرة، وخطيرة، مع أنها قضايا تبدو ـ للوهلة الأولى ـ لا تتصل بالقضية التي وقع الخطأ فيها أولاً، لا من قريب ولا من بعيد، حيث يظهر: أن نظرته للكون، والحياة، والدنيا والآخرة قد تأثرت وتغيرت، بل لقد أثر ذلك على طبيعة إيمانه بالله سبحانه، ونوعية ارتباطه

---

(1) الآية 35 من سورة الكهف.

به، ومستوى تعامله معه.

وبعد ذلك، فإن هذا الخطأ نفسه يوجد في الإنسان حالات سلبية، مثل حالة الطغيان: **(كَلاَ إِنَّ الإِنْسَانَ لَيَطْغَى * أَنْ رَآهُ اسْتَغْنَى)** (1).

ثم هو يحدث خللاً في المعايير التي على أساسها تُعطى القيمة للآخرين، وتنظم الحالة السلوكية معهم، وتضع للإنسان حدوداً لا يتجاوزها في الإقدام والإحجام.

ويتمثل هذا الخلل برؤية من لا مال لديهم: أنهم إنما فقدوا المال حين فقدوا مؤهلات الحصول عليه. فلصاحب المال إذن أن يستخف بهم، وأن يستعمل معهم أي أسلوب تحقيري لأنهم بفقدهم المال وفقدهم مؤهلات الحصول عليه، قد فقدوا شخصيتهم، وقيمتهم، ولم يعد لهم حرمة، ولا كرامة، وليصبح الهمز واللمز واحداً من أساليبه التي يعتادها، ويكثر من ممارستها. قال سبحانه: **(وَيْلٌ لِكُلِّ هُمَزَةٍ لُمَزَةٍ * الَّذِي جَمَعَ مَالاً وَعَدَّدَهُ**

---

(1) الآيتان 6 و 7 من سورة العلق.

* يَحْسَبُ أَنَّ مَالَهُ أَخْلَدَهُ)[1].

الكفر نتيجة الإحساس بالأمن:

ومن خلال الإحساس بالأمن إلى جانب المال، يقدم المترفون على تكذيب الذين ينذرونهم، بالمهالك والأخطار التي تنتظرهم.

وذلك لأنهم يرون أنه لا مجال للخوف من شيء، ما دام أن المفتاح السحري بيدهم، وهو المال ذلك المفتاح الذي تفتح به جميع الأبواب، وتواجه به كل العقبات والصعاب، وتتهيأ جميع العلل والأسباب ـ حسب زعمهم ـ.

وواضح: أن ذلك يرجع إلى جهل صاحب المال بحقائق الأمور، وعدم تعمقه فيها، ليقف على الحقيقة التي لم يزل يهرب منها، وهي أن المال، ليس له أي تأثير في ذلك، ولا هو قادر على دفع ضرر، ولا على حل مشكل، إلا بالطريقة التي رسمها الله سبحانه،

---

(1) الآيات 1 ـ 3 من سورة الهمزة.

وعلى أساس النظرة القرآنية الصحيحة.

وقد أوضح الله سبحانه ذلك في الآية الشريفة التي تقول:

(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَّ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ) (1).

ولنا عودة إلى هذه الآية في موقع آخر إن شاء الله تعالى.

أما منشأ شعورهم بهذا الأمن من العذاب، فليس هو شعورهم بأن بإمكانهم ان يفتدوا من عذاب الله بأموال يقدمونها إليه سبحانه على سبيل الرشوة أو الفدية، بل لشعورهم بأن نفس كونهم ذوي أموال وأولاد، يعطيهم عزة وكرامة، ويمنحهم امتيازاً ليس لغيرهم، وهو بنفسه يحبب الآخرين بهم، ويجعل لهم

---

(1) الآيات 34 - 36 من سورة سبأ.

خصوصية وقربى، وزلفى لديهم.

فالوجدان نفسه ذو قيمة، والحرمان نفسه فقدان لتلك القيمة. وهو ما أشار إليه تعالى حين قال لهم بعد الآيات السابقة مباشرة: **(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى)**[1].

الانفصال عن الرافد الحقيقي:

وفي حركة من صاحب المال باتجاه الخسران والسقوط ونسف ما تبقى من جسور، يبادر إلى الانفصال عن الرافد الحقيقي، ليستعيض عنه بما يتوافق مع تلك النظرة الخاطئة، التي رضيها لنفسه، وكانت هي المنطلق لتبدلات حقيقية في نظرات كثيرة له في مجالات مختلفة أخرى، وكانت هي المنشأ لتحولات في داخل شخصيته أيضاً من نفسية، وغيرها. وفي خارجها في أوضاع كثيرة تلامسها ورتبط بها بطريقة أو بأخرى.

---

(1) الآية 37 من سورة سبأ.

ويتمثل قطع العلاقة هذا في مغالطة عبَّر عنها قارون الإسرائيلي بصراحة ووضوح فيما مضى، فإنه رغم أن الله سبحانه هو الذي أتاه **(مِنَ الْكُنُوزِ مَا إِنَّ مَفَاتِحَهُ لَتَنُوءُ بِالْعُصْبَةِ أُولِي الْقُوَّةِ)**(1)، إلا أنه أصبح ينكر ذلك، معتبراً أن حصوله على المال، إنما كان من أجل ما كان لديه من طاقات وقدرات ذاتية، وفهو يقول: **(إِنَّمَا أُوتِيتُهُ عَلَى عِلْمٍ عِنْدِي)**(2).

معالجات القرن للظاهرة القارونية:

أما الأساليب التي اتبعها القرآن لمعالجة ظاهرة القارونية، فلم تكن من نوع واحد، وعلى نسق واحد، بل هي قد تنوعت وتعددت؛ فكما استعمل القرآن لغة البيان الاستدلالي الإقناعي، المستند إلى طرح المعادلة، ومبرراتها، وفقاً لمعايير الإقناع الفكري الهادئ والرصين، الذي يستنجد بالعقل، ويقدم المبررات الموضوعية المستندة إلى المقارنات المقبولة والواقعية،

---

(1) الآية 76 من سورة القصص.

(2) الآية 78 من سورة القصص.

وإلى الشواهد الحية، المعتمدة على مقتضيات الفطرة، وعلى المرتكزات الفكرية والعقيدية، والإيمانية الصحيحة، التي تصل في وضوحها إلى درجة الضرورة والبداهة.

فقد استعمل أيضاً أساليب أخرى لها دورها في تكوين القناعات الصحيحة والموضوعية. ونحن نقدم هنا نموذجاً من هذا وذاك، ليكون مدخلاً مناسباً لمتابعة البحث في هذا السبيل، لمن يجد ضرورة لذلك، فنقول:

دور التأكيد والإصرار في كبح الجماح:

إن الظاهرة الأكثر شيوعاً، وأشد خطراً هي اتجاه الناس نحو تكديس المال وتكثيره، ما وجدوا إلى ذلك سبيلاً. وقد أشار الله سبحانه في العديد من الآيات: إلى هذه الظاهرة فقال: **(وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ)**(1).

وقال تعالى وهو يتحدث عن الرجلين اللذين جرت

---

(1) الآية 35 من سورة سبأ.

بينهما محاورة في شأن المال: **(وَكَانَ لَهُ ثَمَرٌ فَقَالَ لِصَاحِبِهِ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً)**(1).

وأشار سبحانه إلى إغراقهم التكاثر بالأموال، فقال: **(أَلْهَاكُمُ التَّكَاثُرُ * حَتَّى زُرْتُمُ الْمَقَابِرَ)**(2).

وقال سبحانه: **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ)**(3).

وقد تصدى الله سبحانه لمعالجة ظاهرة الزهو ـ كالطاووس ـ بالكثرة الخاوية، والانبهار بالأكداس والأحجام، والعُجب والافتتان بالأعداد، والأرقام. دون أن يستخدم هذا المال في ما ينفع أو يجدي، بل يعزله عن الحياة، ويسخرها، ويقتطع منها الكثير ويدمره من أجله وفي سبيله.

فكان من جملة ما عالج الله به ذلك هو التأكيد

---

(1) الآية 34 من سورة الكهف.

(2) الآيتان 1 و 2 من سورة التكاثر.

(3) الآية 20 من سورة الحديد.

القوي على أمر الآخرة، ووجود عذاب الجحيم فيها. فأورد تعالى التأكيد تلو التأكيد، بأسلوب قاطع للعذر وحازم وحاسم، من أجل أن يحملهم على إعادة النظر في موضوع لا يمكنهم تجاهله، ولا التسامح فيه، لأنه أمر خطير جداً، يمس وجودهم، وحياتهم، ومستقبلهم. فأي شيء يثار حوله، سوف يثير مخاوفهم وهواجسهم، فكيف إذا كان بطريقة حازمة وحاسمة وقاطعة، مع مزيد من التأكيد والإصرار، من قبل من بيده ملكوت كل شيء وهو أعلم العالمين، وأحكم الحاكمين، بأسلوب يتضمن رد تصوراتهم وتخطئتهم فيها، مع إلحاح إلى أنهم سوف يحاسبون على ما جمعوه وكنزوه، فهو تعالى يقول: **(كَلاَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * ثُمَّ كَلاَ سَوْفَ تَعْلَمُونَ * كَلاَ لَوْ تَعْلَمُونَ عِلْمَ الْيَقِينِ * لَتَرَوُنَّ الْجَحِيمَ * ثُمَّ لَتَرَوُنَّهَا عَيْنَ الْيَقِينِ * ثُمَّ لَتُسْأَلُنَّ يَوْمَئِذٍ عَنِ النَّعِيمِ)**(1).

(1) الآيات 3 - 8 من سورة التكاثر.

واقع الحياة الدنيا:

وفي معالجة أخرى نجده تعالى يقول: **(اعْلَمُوا أَنَّمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا لَعِبٌ وَلَهْوٌ وَزِينَةٌ وَتَفَاخُرٌ بَيْنَكُمْ وَتَكَاثُرٌ فِي الأَمْوَالِ وَالأَوْلاَدِ كَمَثَلِ غَيْثٍ أَعْجَبَ الْكُفَّارَ نَبَاتُهُ ثُمَّ يَهِيجُ فَتَرَاهُ مُصْفَرّاً ثُمَّ يَكُونُ حُطَاماً وَفِي الآخِرَةِ عَذَابٌ شَدِيدٌ وَمَغْفِرَةٌ مِنَ اللهِ وَرِضْوَانٌ وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُور)** (1).

فهو تعالى يقدم للناس مثلاً من واقع حياتهم، ليفهمهم ان الحياة الدنيا كالنبات الذي ليس له جذور، ولا أصول راسخة، ولا قوة ولا صلابة لديه، تحميه من العوادي، بل ما أسرع ما يتضاءل ويذوي، ويذبل، ويخبو رواؤه، ثم يصبح حطاماً، من دون حاجة إلى قوة حاطمة ومدمرة.

ونبات هذه حاله، وهذه هي قدراته لا مجال لجعله موضعاً للآمال الكبيرة، ولا محلاص للثقة به،

---

(1) الآية 20 من الحديد.

والاعتماد عليه، فإن العاجز عن الدفع عن نفسه، لن يكون قادراً على حماية غيره، ولن يعطي القوة فاقدها. ولا يعطي الخلود والبقاء، من ينتهي به الأمر إلى أن يصبح حطاماً تذروه الرياح.

وهذه هي نفس حال الدنيا أيضاً، لو عقل الطالب، وتأمل بحالها الراغب، فإنها مجرد حركة هي أشبه باللعب، الذي ليس له هدف كبير، ولا صغير. وهي لهو أيضاً، لأنها تلهي هذا الإنسان، وتصرفه عن التفكير في واقعه، وفي ما يؤول إليه أمره. كما أنها مجرد زينة، تعطي للظواهر، رونقاً وجمالاً خادعاً. ثم هي تفاخر، وتكاثر بالأموال والأولاد، وليس وراء هذا التفاخر والتكاثر، واقع آخر.

والخلاصة: إن الدنيا مجرد لذة عابرة، تنتهي بانتهاء الممارسة لها، وهي عبارة عن ظاهر، وليس لهذا الظاهر باطن حقيقي وأصيل. قال تعالى: **(وَمَا الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَ مَتَاعُ الْغُرُورِ)**.

أما الآخرة؛ فهي الأصالة، وهي الحقيقة، فيها تكون المثوبة، والمغفرة، والرضوان. وفيها أيضاً

العذاب الشديد والخزي الأكيد، لمن حاد عن الصراط السوي.

فالتمثيل القرآني لهذه الدنيا بالغيث الذي أعجب الكفار نباته من شأنه أن يدفع الإنسان إلى تلمس مواضع الشبه بينها وبين الغيث، ومعرفة أبعاد ذلك الشبه، وحدوده، ليكتشف المبررات التي دعت إليه، والهدف الذي كان من أجله.

دور القدرات الذاتية في الحصول على المال:

وقد عرفنا أن الأغنياء بالمال كثيراً ما يخطئون في تقييم الأمور، وربطها بأسبابها ومناشئها الحقيقية، فيتخيلون ما ليس سبباً سبباً، وقد يرون أوهامهم في صورة حقائق وخيالاتهم على شكل وقائع لاسيما حينما تكون ثمة دوافع ومؤثرات شخصية، حيث يرضي ذلك بعض غرروهم، وينسجم مع أهوائهم.

وقد كان الامر بالنسبة إلى المال هو ذلك، فإن التخيل الذي يقول: إن الغني إنما صار غنياً؛ لأنه يملك من العقل، والحكمة والتدبير، وكثير من الخصوصيات

والمميزات الأخرى، ما جعله يفوز بالمال، دون غيره ممن يفقد هذه الميزات والخصوصيات. إن هذا التخيل، يرضي غرور الإنسان، وينجسم مع أهوائه وطموحاته، وحتى لو لم يكن في بادئ الأمر مقتنعاً بذلك، فإنه سوف يحاول أن يقنع نفسه به ولو عن طريق بعض التلقينات والإيحاءات.

وقد وجه الله سبحانه الناس إلى هذه الظاهرة بالذات وأفهمهم ان القضية ليست في أحيان كثيرة مرتبطة بذلك، لاسيما وأن المشاهد هو أن أكثر الفقراء لا يعوزهم شيء من الذكاء، والفطنة، والحنكة والتدبير، ولا يعانون من أي نقص في الطاقات، والقدرات والإمكانات المفيدة والمؤثرة في هذا السبيل.

بل إن بعض الأغنياء قد يكون ضعيفاً أو فاقداً لبعض قدراته بدرجة كبيرة ومعنى ذلك أن القضية لا يمكن أن تكون منفصلة عن المؤثرات الأخرى، التي لا تقع تحت اختيار الإنسان، ولا تنتهي إليه، فإنها مرتبطة بالله سبحانه، الذي هو رب العباد، فهو الذي يبسط الرزق لمن يشاء، ويقدر (أي يضيّق) وذلك من موقع

كونه المربي لهم، والمدبر لأمورهم. ولكن ذلك يتم من خلال ما جعله الله سبحانه من ضوابط ونواميس لهذه الحياة، يتم تدبيرها وإدارته بها وعلى أساسها أجرى تدبيره وإدارته على أساسها.

فعدم معرفة أكثر الناس لهذه الحقيقة، وعدم علمهم بحقيقة السياسة والتدبير الإلهي، ومدى تأثيره في الغنى والفقر، هو الذي دعاهم إلى الاعتقاد بأن كثرة المال لهم إنما هي لامتياز موجود فيهم، وليس لله تأثير في ذلك، الأمر الذي أدى بهم إلى الكفر بما يأتي به المنذرون، ثم إلى الاعتقاد بأن العذاب لن ينالهم.

قال تعالى: **(وَمَا أَرْسَلْنَا فِي قَرْيَةٍ مِنْ نَذِيرٍ إِلاَ قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُمْ بِهِ كَافِرُونَ * وَقَالُوا نَحْنُ أَكْثَرُ أَمْوَالاً وَأَوْلاَداً وَمَا نَحْنُ بِمُعَذَّبِينَ * قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لاَ يَعْلَمُونَ)** (1).

(1) الآيات 34 - 36 من سورة سبأ.

الأمن والزلفى بماذا ؟!:

ثم عالج الله سبحانه المفهوم الخاطئ لدى المتمولين عن دور المال في حصول القرب والزلفى لدى الله سبحانه، فواجههم برفض ذلك ورده بحزم، ثم قدم البديل الحقيقي، الذي يكون به القرب منه تعالى ويحصل معه الإنسان على السلام والامن. فقال سبحانه: **(وَمَا أَمْوَالُكُمْ وَلاَ أَوْلاَدُكُمْ بِالَّتِي تُقَرِّبُكُمْ عِنْدَنَا زُلْفَى إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحاً فَأُولَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)**(1).

فنجد أنه سبحانه هنا قد نظر إلى الموضوع من البعد النفسي، فالناس ـ من جهة ـ يشعرون في داخلهم بالحاجة إلى الأمن والسلام، ويريدون الهروب من أجواء الخوف، ليعيشوا في واحات الامن، لتنطلق أرواحهم فيه، محلقة في آفاقه الرحبة بعزة وشموخ وشمم، ولن يتحقق ذلك في الأجواء المشحونة بالرعب، المليئة بالوساس والمخاوف.

---

(1) الآية 37 من سورة سبأ.

ومن جهة أخرى، إن الإنسان يريد أن يرى نفسه محبوباً لدى أولئك الذين يرى لهم تفرداً وتميزاً وشأناً ما، وهو يتلذذ بالقرب منهم، ويأنس بالتحبب والتودد إليهم تحديداً، بل هو يريد ذلك بالنسبة لأي كان، لأن ذلك يعني أن الآخرين معجبون به، مقرون بما له من امتيازات وقدرات. وهذا أمر يرضيه، ويثير فيه حالة الزهو والاعتزاز.

ومن الواضح: أن أعظم ما يثير فيه الخوف، ويحتاج معه إلى الأمن، وأولى شيء بطلب القرب والزلفى منه هو الله سبحانه، فإن الإنسان ينساق لطلبهما بصورة طبيعية وعفوية، وبهما تتم سعادته، وتكون بهجته ولذته، وهما يمثلان له حقيقة الامن وواقعية السكون النفسي وعمق اللذة والراحة النفسية وحلاوتها الحقيقية.

بل إن اللذة الجسدية إذا لم تؤد إلى الراحة في النفس، والانتعاش في الروح، فإنها تكون مجرد أداء آلي، كله جفاء، وخواء، وهباء بكل ما لهذا الكلمة من معنى.

من أجل ذلك كله، نجد أنه تعالى يولي هذا الجانب أهمية خاصة، ويقرر بصورة قطعية: أن المال لا يقرّب منه تعالى زلفى. ولا يحصل معه الأمن والسلام.

بل إنما يحصل ذلك بالإيمان، الذي هو حالة قلبية مضمونها الأمن نفسه، والطمأنينة ذاتها **(أَلاَ بِذِكْرِ اللهِ تَطْمَئِنُّ الْقُلُوبُ)**(1)، بالعمل الصالح، الذي ينقل الإنسان إلى حالة أفضل، ويستمر هذا العمل، ويستمر ذلك الانتقال في مسيرة تكاملية رائدة وحركية فاعلة ومؤثرة، حتى تصل الإنسان إلى نفسه: **(يَا أَيُّهَا الإِنْسَانُ إِنَّكَ كَادِحٌ إِلَى رَبِّكَ كَدْحاً فَمُلاَقِيهِ)**(2). فيصل إلى الغرفات حيث الزلفى، وبتلك الزلفى يكون الأمن والسلام له: **(وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ)**(3).

حقيقة المال، والآمال:

ولا يقف الإنسان عند هذا الحد، بل يتعداه ليعالج

---

(1) الآية 38 من سورة الرعد.

(2) الآية 6 من سورة الإنشقاق.

(3) الآية 37 من سورة سبأ.

ظاهرة القارونية بأسلوب آخر، وبطريقة أخرى، تتمثل في اتجاهين:

أحدهما: تحديد دور المال وقيمته في الحياة.

والثاني: تبيين قدرة المال على تحقيق آمال الإنسان، ولتوضيح ذلك نقرأ قوله تعالى:

(الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَالْبَاقِيَاتُ الصَّالِحَاتُ خَيْرٌ عِنْدَ رَبِّكَ ثَوَاباً وَخَيْرٌ أَمَلاً)(1).

فقد حدَّد القرآن دور المال، وأنه مجرد زينة للحياة الدنيا، يعطيها بعض الرواء الظاهري، ويمنحها شيئاً من التوهيج والإشراق، بما يثيره من إنشراح وبهجة نفسية.

ولكن هذا المال لن يكون قادراً على تجاوز الحياة الدنيا إلى ما هو أسمى وأكثر واقعية منها، حيث يشعر الإنسان هناك ـ بصورة أكثر عمقاً ـ بالحياة، ويلامس حقائقها بكل كيانه ووجوده ومن دون أية موانع أو

---

(1) الآية 46 من سورة الكهف.

حواجز يمكن أن تقلل من مستوى وعمق هذا الإدراك، وصفاء ونقاء ذلك الشعور الغامر، وهو ما عبّر الله عنه بالنسبة للدار الآخرة بقوله: **(وَمَا هَذِهِ الْحَيَاةُ الدُّنْيَا إِلاَّ لَهْوٌ وَلَعِبٌ وَإِنَّ الدَّارَ الآخِرَةَ لَهِيَ الْحَيَوَانُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ)**(1).

فإذا تحقق ذلك، فإنه يصبح واضحاً: أن المال لن يستطيع أن يمنح الإنسان أملاً حقيقياً، له امتداداته وآفاقه، المفعمة بالخير، المواجهة بالسعادة الحقيقية. ولا يمكن أن يكون المال رفيقاً وفياً في طريق الحياة الطويل، بل هو سوف يتوقف عن الحركة والفاعلية والتأثير، في أحرج الأوقات، وأشدها خطورة، وأعظمها تأثيراً على المصير، وعلى كيان ووجود الإنسان كله.

إذن، فلا يمكن لهذا المال أن يكون موضع الآمال الكبيرة، المفعمة بالخير، ولا هو أهل للاعتماد عليه في شيء. فلابد من البحث عما هو خير وأبقى، وأنفع،

---

(1) الآية 64 من سورة العنكبوت.

ليصبح هو موضع الامل، ومحل الاعتماد. وقد قرر الله سبحانه: أن ما يصلح لذلك هو الباقيات الصالحات، فهي خير عند ربك ثواباً، وخير أملاً.

لغة التحذير والإغراء:

وربما لا تنفع كل تلك المحاولات مع هذا الإنسان المبهور بالمال، والمأسور للأعداد والأرقام، والمنشدّ إلى الأكداس والأحجام فتمس الحاجة إلى التصعيد في درجة التعامل معه، ليصل إلى حد التحذير القوي، الذي يستند إلى معادلة واقعية تمثل بطبيعتها إغراءً مثيراً، وجذاباً أيضاً.

وذلك لأنه تعالى، في الوقت نفسه الذي يعتبر فيه المال فتنة، يصرف الإنسان عن واقع الأمور، ويغرّه ويغريه، ويجعله يعيش أوهاماً وخيالات لا حقيقة لها؛ فإنه قد قابل ذلك بأن عنده تعالى أجراً عظيماً يفوز به من لا يستسلم لتلك الفتنة، ولا يغرق في تلك الأوهام، والله سبحانه هو الخير، ومصدر الخير والعطاء، ومبدأ كل نعمة، دقت أو جلت.

قال تعالى: **(إِنَّمَا أَمْوَالُكُمْ وَأَوْلَادُكُمْ فِتْنَةٌ وَاللهُ عِنْدَهُ أَجْرٌ عَظِيمٌ)**(1).

الصدمة والعبرة:

وحين تفشل جميع محاولات الإقناع، وأساليبه، بسبب أن القضية قد تجاوزت حدود القناعة الفكرية، والفهم الخطأ، لتصل إلى حدود المسخ شبه الكامل لكثير من مكونات شخصيته كإنسان يتعاطى مع الأمور من موقع إنسانيته وفطرته، ليصبح إنساناً يتعاطى مع القضايا من موقعه البهيمي والحيواني وما إلى ذلك، أي أن القضية عنده لم تبدأ من حسابات عقلية، يمكن مراجعتها لاكتشاف مواقع الخلل والخطأ فيها، وإنما بدأت من حالة أهوائية، وخيالية زائفة، وخادعة.

ولا يمكن زعزعة هذه الحالة الشعورية الأهوائية، ولن تنقشع غيوم تلك الأوهام، إلا بإحداث الزلزال من الداخل بطريقة بلورة الواقع وتجسيده كياناً حياً، يتلمسه

---

(1) الآية 15 من سورة التغابن.

بأحاسيسه أولاً، ثم ينفتح عليه بوعيه، وبمشاعره ثم بفكره وعقله، عندما يصبح ذلك الواقع تجسيداً وبلورة لمفردات التصور، وهو أيضاً ذلك الربط الواقعي فيما بين هاتيك المفردات بما يحمله من حياةٍ في الشعور، ومن شعورٍ بالحياة يصل إلى حد الملامسة الحقيقية لها.

وقد سجل القرآن لنا الحالات التي عولجت بطريقة إحداث الصدمة في موارد كثيرة، وذلك من أجل أن تكون عبرة، والتنبه للحقيقة فذكر سبحانه وتعالى لنا فيما ذُكر قصة ذلك الرجل الذي قال لصاحبه، وهو يحاوره: **(أَنَا أَكْثَرُ مِنْكَ مَالاً وَأَعَزُّ نَفَراً * وَدَخَلَ جَنَّتَهُ وَهُوَ ظَالِمٌ لِنَفْسِهِ قَالَ مَا أَظُنُّ أَنْ تَبِيدَ هَذِهِ أَبَداً * وَمَا أَظُنُّ السَّاعَةَ قَائِمَةً وَلَئِنْ رُدِدْتُ إِلَى رَبِّي لَأَجِدَنَّ خَيْراً مِنْهَا مُنْقَلَباً * قَالَ لَهُ صَاحِبُهُ وَهُوَ يُحَاوِرُهُ أَكَفَرْتَ بِالَّذِي خَلَقَكَ..)**.

..وتستمر الآيات إلى أن تقول: **(وَأُحِيطَ بِثَمَرِهِ فَأَصْبَحَ يُقَلِّبُ كَفَّيْهِ عَلَى مَا أَنْفَقَ فِيهَا وَهِيَ خَاوِيَةٌ عَلَى عُرُوشِهَا وَيَقُولُ يَا لَيْتَنِي لَمْ أُشْرِكْ بِرَبِّي أَحَداً * وَلَمْ تَكُنْ لَهُ فِئَةٌ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مُنْتَصِراً ***

هُنَالِكَ الْوَلاَيَةُ للهِ الْحَقِّ هُوَ خَيْرٌ ثَوَاباً وَخَيْرٌ عُقْباً) [1].

البغي والاستئصال:

وأخيراً.. فحين يتحول صاحب المال إلى وحش كاسر وشرس، كما كان الحال بالنسبة إلى قارون صاحب الكنوز، الذي بغى على قومه.

وحين يريد صاحب المال أن يتخذ من ماله وسيلة لإذلال الآخرين، واستعبادهم وإلحاق الأذى بهم والظلم والاضطهاد لهم، واستغلال كل طاقاتهم وعرقهم وجهدهم، وامتصاص دمهم. وكذلك حين يعصف الزلزال بالآخرين وتتزعزع الثوابت عندهم، بسبب ذلك الذي يملك المال، إذ يخرج على قومه في زينته، ويكاد يفتنهم، ويضلهم. ويتحول إلى عنصر فساد وإفساد في الأرض، فلابد من استئصاله، واجتثاث كل جذوره وأصوله، وتدمير عزه، ليعتبر المعتبرون، ويتفكر في ذلك المتفكّرون ويثوب إليهم رشدهم

---

(1) الآيتان 43 و 44 من سورة الكهف.

وعوازب أحلامهم.

قال تعالى: **(فَخَسَفْنَا بِهِ وَبِدَارِهِ الأَرْضَ فَمَا كَانَ لَهُ مِنْ فِئَةٍ يَنْصُرُونَهُ مِنْ دُونِ اللهِ وَمَا كَانَ مِنَ الْمُنْتَصِرِينَ * وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلاَ أَنْ مَنَّ اللهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لاَ يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ)**(1).

والحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله الطيبين الطاهرين.

حرر بتارخ 19 ربيع الأول سنة 1414هـ.ق 6 أيلول سنة 1993م.

جعفر مرتضى الحسيني العاملي

---

(1) الآيتان 81 و 82 من سورة القصص.